تصميم دار الفحص بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني

د. زكية الراجعي*

التطور التاريخي لمدينة الجزائر

تشرف مدينة الجزائر على البحر المتوسط، و قد أطلق اسمها على البلاد ، أصبحت عاصمة منذ القرن ١٦م، أي منذ دخول العثمانيين الذين أطلقوا على المدينة "جزائر الغرب"[١]، أو الجزائر المحروسة أو الجزائر المحمية. خلال اختلفت الآراء[٢] حول أصل نشأة مدينة الجزائر؛ فمنها التي ترى أنه الفضل يرجع في تأسيس هذه المدينة إلى السكان القدماء لشمال إفريقيا، و رأي آخر يذكر أنهم اليونانيين و الرأي الآخر يرجح الفينيقيين، و لكل واحد منهم منهجه الخاص في تحليل المصادر التي استقصى منها المعلومات غير أنه لا يمكن إثبات هذه الأحداث التاريخية إلا إذا اعتمدنا على المصادر الأثرية التي لا تقبل الطعن، فأقدم الآثار التي عثر عليها بمدينة الجزائر _ إلى حد الآن- تعود إلى العصر الفينيقي[٣] و قد ساعدت هذه الاكتشافات الأثرية في تحديد الاسم القديم للمدينة و هو إيكوسيم و هذا الاسم فينيقي الأصل حرف إلى اللغة اللاتينية في الفترة الرومانية فأصبح إيكوسيوم (Icosium)[٤].

---

*دكتورة/ زكية راجعي ، أستاذة محاضرة :جامع الجزائر-٢- قسم الآثار

[١] عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠، الطبعة الأولى ١٩٧٢، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ص٣٣.

[٢] للإطلاع ؛أنظر:عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠، الطبعة الأولى ١٩٧٢، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ص٣٣.

[٣] تتمثل الإكتشافات الأثرية في تمثال، ضريح، نقود، بئر.

[4] L.Leschi ; Les origines d'Alger, Conférence faite le 16 juin 1941 ,p8

في شهر نوفمبر من سنة ١٩٤٠، كشفت أشغال تحطيم المباني الواقعة بالحي القديم للولاية عن جرة مملوؤة بقطع نقدية من النحاس و الرصاص من أصل فينيقي، و قد استطاع السيد(Cantineau) أستاذ في اللغات الشرقية من ترجمة الكتابة؛ فيذكر أن أصل الكلمة يجب أن تقرأ Ikosim بالرغم من أنها تحتوي على خمسة حروف، لأن أصل كلمة Ikosim مركبة من كلمتين فحرف " I" معناه جزيرة ولقد تعودنا مصادفة هذه اللفظة إذ كانت تطلق على بعض الجزر في البحر المتوسط، و على سبيل المثال:

Ibosim, Ibica وهي عبارة عن جزر تقع في أرخبيل البليار، بينما مصطلح Kosim له عدة معاني، فمنها: الشوك أي جزيرة الشوك أو الطيور غير طاهرة، و قد أثار انتباه الفينقيون الجزر التي كانت تقع مقابلة للبر فأقاموا المرفأ أو المركز التجاري و أطلقوا عليها هذا الاسم. عن: Pasquali , op.cit,p174. و leschi , op.cit, p8 و يضيف كل من السيد/ حليمي و السيد/ عبد الرحمان الجيلالي أنه كانت توجد مجموعة من الصخور المنبسطة الشبيهة بالجزر الصغيرة على سطح البحر،منتشرة بالقرب من الساحل و كان عددها كثيرا و لا يظهر منها سوى أربعة، أضخمها الصخرة التي ذكرها البكري و =

المنارة للاستشارات
www.

كما يعتقد أن استقرار السكان كان في المناطق التي تقل فيها الانحدارات الشديدة أي أن الأحياء السكنية كانت قريبة من الميناء حتى تكون المراكب على مرأى من أصحابها و هذا ما يتفق مع طابع المدن الفينيقية والسؤال الذي يفرض نفسه هو متى تم استقرار الفينيقيين في المنطقة؟ و يعتقد حسب الحروف التي نقشت على النقود أنها سابقة للقرن الثاني قبل الميلاد، أي في الفترة التي تشكلت فيها المماليك النوميدية[٥]، قبل حكم يوبا الثاني[٦]. و في الحقيقة يعتقد أنها تأسست قبل هذا التاريخ بقرون عديدة، فبدون شك كانت عبارة عن مرفأ صغير على غرار المرافئ التي كانت تقام على طول سواحل غرب حوض البحر المتوسط ثم تطور فيما بعد إلى مدينة و هذا بعد تأسيس مدينة قرطاجة في تونس خلال القرن التاسع قبل الميلاد[٧].

في فترة حكم المماليك النوميدية كانت تابعة إلى ملك موريطانيا يوبا ثم أصبحت تحت السيطرة الرومانية و ذلك منذ سنة ٤٠ م[٨].

و بدون شك كباقي المستعمرات الرومانية، شهدت المدينة تطورا و توسعا في العمران يثير الانتباه، ظلت معالمها قائمة لفترة طويلة من الزمن و قد أشار إليها البكري خلال القرن الخامس الهجري (١١ م)[٩]، و في الحقيقة نفتقد للأحداث التاريخية التي مرت بها المدينة خلال الحكم الروماني[١٠]، و لكن ما هو مؤكد أن المدينة كانت أكثر توسعا مما كانت عليه في الفترة الفينيقية[١١].

=سماها "سطفلة" هذه الصخرة التي أقيم عليها الحصن الأسباني كما سيأتي تفصيله، و هذه الصخور مفصولة عن بعضها و لم يتم وصلها إلا في العهد العثماني. عن: حليمي (عبد القادر)؛ مدينة الجزائر...، ص١٤٤،١٤٣. و جيلالي (عبد الرحمان)،"مدينة الجزائر عبر التاريخ" عن تاريخ المدن الثلاثة الجزائر، لمدية، ملیانة، بمناسبة عيدها الألف، إعداد و دراسة و تمهيد عبد الرحمان الجيلالي، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص ١٤،١٣ و الجيلالي (عبد الرحمان)، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، الطبع السابعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص٢٣.

[٥] تشكلت المماليك النوميدية في القرن الثالث قبل الميلاد.

[٦] تمتد الفترة التي حكم فيها يوبا الثاني من سنة ٢٥ ق.م إلى ٢٣ق.م Leschi,op.cit, p8

[٧] يختلف الباحثون في تحديد سنة التأسيس؛ منهم من يذكر سنة ٨١٤ ق.م. و آخر يرجح سنة ٨٨٠ ق.م.

[8] S.Gsell , Les monuments antiques de l'Algérie, T1 et 2 Paris Fontemoring 1901, p75

[9] Gsell , op.cit,p107. Et Pasquali , op.cit, 176

[١٠] الحدث التاريخي الوحيد الذي يتعلق بمدينة إيكوسيم، هو عندما ثار أحد القادة بربري الأصل ضد الرومان سنة ٣٧٢م عن: Leschi,op.cit,P9.

[١١] عبد القادر حليمي، نفس المرجع، ص١٨٧.

المنارة للاستشارات
www.

شهد القرن الخامس ميلادي سقوط الحكم الروماني في شمال إفريقيا، فبعدما تمكن الوندال[١٢] من الاستيلاء على روما، لم يتطلب الأمر إلا بضعة أشهر حتى ضموا مستعمراتها الواقعة في شمال إفريقيا، وامتد توسعهم إلى المحيط الأطلسي. لم يدم حكم الوندال إلا قرن من الزمن، ففي سنة ٥٣٣م استرجع البيزنطيون المنطقة[١٣]، و بسبب الثورات الداخلية والاضطرابات التي تعرضت لها البلاد، استطاع المسلمون دخول البلاد، وبفضل سياسة الفاتحين التي امتازت بالاستقامة و العدل و المساواة[١٤]، اعتنق الكثير من السكان الدين الجديد فأصبحت المنطقة تحت حكم الدولة الإسلامية.

و السؤال المطروح ما هو مصير ايكوسيوم أثناء هجوم الوندال؟ و من بعد ما استرجع البيزنطيون المدينة؟ هل ظلت قائمة عند الفتح الإسلامي؟ لا توجد أي إشارة تاريخية حول تدهور أو اندثار المدينة، و لكن ما هو مؤكد أنها هجرت لفترة طويلة و من المحتمل مدة قرنين و نصف القرن من الزمن أي منذ نهاية القرن السابع ميلادي، و هي الفترة التي دخل فيها المسلمون شمال إفريقيا[١٥] حتى منتصف القرن العاشر ميلادي و قد تميز بتأسيس مدينة الجزائر من طرف بلكين[١٦].

يعود أول تعريف جغرافي لبلاد المغرب في العهد الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع الهجري (١٠م)، نصادفه عند ابن حوقل في "كتاب صورة الأرض" ميزته أنه يقدم وصف لكل بلدة على انفراد[١٧]؛ و قد أشار إليها في كتابه دليل على أنه لم تظهر أهميتها إلا في عصر الدولة الصنهاجية و من قبل إما خربت أو كانت بلدة صغيرة، فيذكر:" **و جزائر بن مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضا، و فيها أسواق كثيرة، و لها عيون على**

---

[١٢] أصل جرماني زحفوا على بلاد الغال (فرنسا)، ثم أسبانيا و دخلوا أرض شمال إفريقيا سنة ٤٢٩م.

[13] Devoulx, op.cit,p499,500.

[١٤] عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، ط.٧، الجزائر، ١٤١٥هـ/ ١٩٦٤م، ص١٣٩.

[١٥] يرجح أن دخول المسلمين لمدينة الجزائر كان ما بين سنتي ٨٨_٩٥هـ/ ٧٠٦_٧١٣م في عهد موسى بن نصير، لم يجدوا بها إلا أطلال و هذا بسبب الاضطرابات التي مرت بها خلال العهدين الوندالي و البيزنطي،و قد أهملها المسلمون الفاتحين نظرا لعزوفهم عن سكن المدن الساحلية. عن: رابح بونار، مدينة الجزائر تاريخها و حياتها الثقافية، ضمن مجموعة: تاريخ المدن الثلاث.....ص٢١٨.

[16] Devoulx,op.cit, p501.

[١٧] اسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر١٩٨٤، ص ١٤،١٥.

المنارة للاستشارات
www.

البحر طيبة و شربهم منها".[١٨] و ما يؤكد على أن بناء المدينة الإسلامية كان على أنقاض المدينة الرومانية ما ذكره البكري:" **... و منها إلى مدينة جزاير بني مزغنى و هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول و آزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم و صحن دار الملعب قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان ... و كانت بمدينة بني مزغنى كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب و هو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش و الصور".**[١٩]

أما فيما يخص تأريخ التأسيس فيشير ابن خلدون إلى أن وفاة الزيري ابن مناد سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م، و قد دام حكمه ٢٦ سنة و في هذه الفترة أذن لابنه بتأسيس المدينة و من المحتمل في الفترة الأولى من حكمه و يمكن تحديدها في سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م[٢٠].

و يظهر أن اختيار بلكين لهذا الموقع لتأسيس مدينة دليل على وجود العديد من مواد البناء أعيد استعمالها لإقامة المدينة الجديدة، فبدون شك بعد هجرة مدينة بقيت بعض الآثار مبعثرة في المنطقة، كما يحتمل أنه لا يمكن أن تقام مدينة في مكان خال بصفة كاملة من السكان فجمال المنطقة و اعتدال جوها و وجود ميناء طبيعي بساحلها قد يكون جلب العديد من الأسر[٢١] و ربما من بين هؤلاء السكان قبيلة بني مزغنة التي لا يمكن تحديد الفترة التي استقرت فيها ولكن من المحتمل جدا قبل التأسيس، استقرت بين الآثار القديمة[٢٢] و تمثلت الأعمال التي قام بها بلكين في تمصيرها، و حسب ما أشار إليه ابن خلدون حين تحدث عن عمران أهل إفريقيا و المغرب بأن أكثرهم بدويا يسكنون الخيم سواء رحل أومستقرين، كما كانوا يقيمون الأكواخ (ظواعن و كنن)[٢٣]، لذلك اضطر بلكين إلى تخطيط المدينة لاستقرار السكان، و نظرا لطول الفترة الزمنية التي بقيت فيها المدينة مهجورة اختير

---

[١٨] أبي القاسم ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ب.ت، ص٧٦،٧٨.

[١٩] أبي عبيد الله البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب. و هو جزء من أجزاء الكتاب المعروف بالمسالك و الممالك،
deuxième édition typographie adolphe jourdan, imprimerie librairie edition, 1911, p66.

[20] Devoulx, op.cit, p502.

[21] H.D. de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830),Ernest Leroux éditeur, Paris 1887, p4.

[22] Devoulx, op.cit, p507.

[٢٣] عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر السابق،ص٣٩٦، و
L.Golvin, le Magrib central à l'époque des zirides,Artsetmétiergraphique Paris1957,p166

المنارة للاستشارات
www.

اسمها نسبة إلى الجزر التي تقع أمام المدينة على بعد رمي سهم منها و القبيلة التي بالمنطقة، فأطلق عليها جزائر بني مزغنة[٢٤].

إن تاريخ مدينة الجزائر في العصر الإسلامي حافل بالأحداث؛ فقد خضعت مدينة الجزائر و المناطق الواقعة إلى الشرق منها خلال العهد الحمادي إلى المرابطين الذين استخلصوها من بني عمومتهم الحماديين، و لا شك أن بناء المرابطين للمسجد الجامع دليل قاطع على آخر على توفرها على عدد كبير من السكان. و بعد سقوط الحماديين و المرابطين معا على يد الموحدين في القرن السادس الهجري (١٢م)[٢٥]، خضعت المدينة و المنطقة بكاملها إلى حكم مركزي عاصمته مراكش، و لا شك ان المدينة على غرار المدن الموحدية الأخرى عرفت ازدهارا و تطورا كان له تأثير في توسع عمرانها، وقد بلغت أوجها في عصر الدولة الموحدية.

سقطت الدولة الموحدية سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٦٩م فانقسمت شمال إفريقيا إلى دويلات، و هي: بنو مرين في المغرب الأقصى، و بنو عبد الواد (أو بني زيان) في تلمسان و بنو حفص في تونس، و دخلت هذه الدويلات في صراع فيما بينها لمد حدودها، وخضعت مدينة الجزائر للزيانيين تارة و أخرى للحفصيين[٢٦]، و قد أدت هذه الاضطرابات إلى تدهور المدينة و عرقلت النشاطات التجارية و الصناعية، كما أثرت على حركة العمران بحيث تقلص، و لم تعرف المنطقة رواجا أو انتعاشا إلا بعد هجرة الأندلسيين الذين توافدوا عليها و ذلك في القرن الثامن الهجري (١٤م)[٢٧]، و في هذه الفترة بالرغم من أنها كانت تابعة لحاكم بجاية فقد ظل أهلها أحرار، فشكلوا ما يشبه بجمهورية صغيرة يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة، أول

---

[24] Devoulx, op.cit, p504

تنتمي قبيلة مزغنة إلى قبيلة صنهاجة البربرية و مازالت بقاياها معروفة باسمها الأصلي مندرجة في قبيلة بني سليمان الشراق على الضفة اليمنى لوادي يسر، و على بعد ٣٠ كلم إلى الجنوب الشرقي من قرية الأربعاء و ورد اسمها في بعض النسخ المخطوطة كالتالي: "زغناي و مزغناي و مزغنة و مزغني" عن: عبد الرحمان الجيلالي، مدينة الجزائر عبر التاريخ...ص١٥. كما يذكر بربروجر (Berbrugger) يوجد جبل يقع في المنطقة العلوية لوادي يسر، و أضاف بأنه يوجد بالسهل المتيجة حوش يسمى حوش مزغنة، عن:

Berbrugger, Archéologie des environs d'Icosium (d'Alger) Année 1861, T5, p137.

[٢٥] أحمد سليمان، تاريخ مدينة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٩، ص٧.

[٢٦] السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر، ط.٢، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص ٧٨١، ٧٨٦، ٧٨٧.

[٢٧] عبد القادر حليمي، نفس المرجع، ص ص ٢٠٣، ٢٠٤.

المنارة للاستشارات
www.

رئيس لها هو الشيخ عبد الرحمان الثعالبي[٢٨] و بعد وفاته انتقلت السلطة إلى منافسيهم أولاد سالم[٢٩]، كما عمل أهلها على تجهيز سفن وتحولوا إلى قراصنة[٣٠] و راحوا يغيرون على الجزر الأسبانية، بل و حتى على سواحلها[٣١]، و يذكر حسن الوزان الملقب بليون الإفريقي أن بسبب هذه الهجمات أراد الملك الأسباني فرديناند محاصرة الجزائر[٣٢]، ولكن الدافع الحقيقي إلى ذلك هو حقد الأسبان على المسلمين، فرأوا ضرورة مواصلة محاربتهم في أراضيهم، لذلك تعرضت الجزائر كسائر مدن ساحل إفريقيا، لكثير من المتاعب والمصاعب و قد تمكن الأسبان من احتلال مدينة وهران و مرساها الكبير، ثم بجاية و خوفا من أن يحتلوا الجزائر، اضطر أهلها إلى عقد هدنة مدتها عشر سنوات[٣٣]، يدفعون خلالها ضريبة سنوية، و لإظهار حسن النية منحت الجزائر إلى القائد الأسباني بيدرو نافارو (Pedro Navarro) الجزيرة الصخرية التي تقع على بعد مئات الأمتار من المدينة و المقابلة لها، فأقام بيدرو القلعة المعروفة بحصن البينون (Peňon)، و ترك حامية بها عددها ٢٠٠ عسكري.[٣٤]

بإقامة الأسبان لهذا الحصن أصبحوا يهددون المدينة في أي وقت[٣٥] كما عملوا على منع السكان من ممارسة نشاطتهم المختلفة و خاصة النشاط التجاري، و استقبال سفن المسلمين فضاق سبيل العيش بأهل الجزائر و لم يطيقوا صبرا على هذه الأحوال، فاغتنموا فرصة الاضطرابات التي عمت بالبلاد على إثر

---

[٢٨] الفترة التي عاش فيها عبد الرحمان الثعالبي ٧٧٣_٧٨٩هـ / ١٣٨٧_١٤٦٨م.
الثعالبة: إحدى القبائل العربية التي كانت تقطن سهل المتيجة، استغلت الاضطرابات التي كانت قائمة في المدينة فاستولت عليها.

[٢٩] رابح بونار، مدينة الجزائر تاريخها و حياتها الثقافية، ضمن مجموعة تاريخ المدن الثلاث...، ص٢٢٠. و عبد الرحمان الجيلالي، مدينة الجزائر...ص٢٦.

[٣٠] كانت حرفة القرصنة في العصور الوسطى من السبل المشروعة لكسب الأرزاق و كانت معظم الدول الأوروبية المطلة على البحر سباقة في هذا الميدان، عن: عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر...، ص٣٨، و يذكر دي جرامون De Grammont نقلا عن ابن خلدون بأن سكان بجاية مارسوا القرصنة منذ حوالي سنة١٣٦٤م. عن:
Grammont,op.cit, p4

[٣١] الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، ١٩٧٩، ص٤٠٩.

[٣٢] حسن الوزان، المصدر السابق، ص٤٠٩.

[٣٣] نجد اختلاف في تحديد السنة التي أمضيت فيها الهدنة؛ فهناك من يذكر سنة ١٥٠٩، و آخر ١٥١١.

[٣٤] عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث ...ص٣٦، ٣٩. و انظر:
عبد الرحمان الجيلالي، مدينة الجزائر.....، ص٢٦، و De Gramonnt, op.cit, p15.

[٣٥] من هذا الحصن يمكن إصابة المدينة بالمدافع.

المنارة للاستشارات
www.

نبأ وفاة الملك الأسباني، فطلبوا من حاكم الجزائر سالم التومي، أن يرسل وفدا إلى الأخوة بربروس[٣٦] يلتمسون منهما المساعدة، فلبا الدعوة ، فأول ما قام به عروج هو محاولة طرد الأسبان من الحصن، لكنه لم يوفق في ذلك، هذا ما أدى إلى إثارة ضده أعيان البلد، ولكنه استطاع أن يسيطر على الوضع و ذلك بقتل سالم التومي و تنصيب نفسه حاكما على الجزائر، كما استطاع أن يقضي على أي مؤامرة دبرت له، كما عمل على تنصيب أخيه خير الدين في مكانه[٣٧] و فضل مواصلة المعارك داخل البلاد، لأنه استيقن أنه لا يمكن السيطرة على هذا البلد إلا بالسيطرة على المناطق الداخلية[٣٨].

تعرض خير الدين إلى العديد من الصعاب، وخاصة عند مقتل أخيه سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م، فقد رأى أنه لا يستطيع فرض الاستقرار إلا باستمالة علماء و شيوخ و أعيان الجزائر، فتودد إليهم و في نفس الوقت أدرك أنه لا يستطيع الاحتفاظ بالبلاد إلا بعد ضمها للسلطة العثمانية، فعرض رأيه على أعيان البلد و نظرا للظروف التي كانت سائدة آنذاك أي الخوف من عودة هجوم الأعداء على البلاد، فوافقوا على رأيه فأصبحت الجزائر منذ سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م ولاية عثمانية[٣٩] خاضعة لحكام إقليميين يحملون ألقاب اختلفت[٤٠] حسب الظروف التي مرت بها البلاد، و قد دامت شهرة الإيالة ثلاثة قرون متوالية كانت تبعث الرعب في المماليك المسيحية[٤١] إلى أن سقطت باحتلالها من طرف الفرنسيين.

---

[٣٦] أطلق هذا اللقب على الأخوان عروج و خير الدين و هما من جزيرة ميتيلان Mytilence، و قد شاع ذكرهما بسبب ما اشتهر به من الشجاعة و ما أحرزاه من النجاح في أعمال نجدة المسلمين من المسيحيين، يوجد اختلاف فيمن أطلق عليه هذا اللقب فمنهم من يذكر أنه أطلق على خير الدين فقط و البعض الآخر يرى أنه تحريف لبابا عروج، للاطلاع، أنظر: H.D.De Grammont, op.cit, p20,31, 32. و أنظر:عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر...، الجزء الثالث، ص٣٥، ٣٦.

[٣٧] عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر...،الجزء الثالث، ص٣٩، ٤٤_٤٦. و عبد القادر حليمي،"أصول النشأة لمدينة الجزائر"، ضمن مجموع تاريخ المدن الثلاث... ، ص١١٣،١١٤. و H.D.De Grammont, op.cit, p21,23,24,27,40.

[38] H.D De Grammont, op.cit, p40.

[٣٩] عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر...، ص٤٣_٤٦.

[٤٠] مرت الإيالة الجزائرية بالمراحل التالية:فترة دخول العثمانيين: ٩٢٠_٩٥٠هـ/ ١٥١٤_١٥٤٤م، عصر البيلرباي: ٩٥٠_٩٩٥هـ/ ١٥٤٤_١٥٨٧م. عصر الباشاوات: ٩٩٥_١٠٦٩هـ/ ١٥٨٧_١٦٥٩م، عصر الآغاوات: ١٠٦٩_١٠٨١هـ/١٦٥٩_١٦٧١م، عصر الدايات: ١٠٨١_١٢٤٦هـ/ 1671_١٨٣٠م.

[٤١] وليام شالر، مذكرات وليام شالير قنصل أمريكا في الجزائر ١٨١٢_ ١٨٢٤، تعريب و تعليق و تقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ١٩٨٢ ، ص٤١.

المنارة للاستشارات
www.

بانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، عرفت البلاد عدة تغييرات جذرية في جميع الميادين سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وكان أول ما قام به خير الدين هو تحطيم حصن البينون و هذا بعد طرد الأسبان منه سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م، و يذكر أنه بحجارته أنشئ الرصيف الذي يربط بين الجزر الأربعة واليابس[٤٢]، أي أن المدينة أصبحت مجهزة بميناء، ففيما مضى لم يعتمد سكانها إلا على مينائها الطبيعي، كما اتخذ من المدينة عاصمة للبلاد و أصبح يطلق عليها جزاير الغرب نسبة إلى الجزر الصغيرة التي تتقدم المدينة، كما أطلقوا عليها بعض الأحيان اسم المحروسة و دار الجهاد[٤٣]،وهذا لارتباطها بالنشاط الذي كان يمارسه القراصنة، و كان له تأثير كذلك في تطور عمران المدينة نحو الدفاع و التحصين ضد هجمات المسيحيين التي تواصلت من حين إلى آخر، فكان من الطبيعي أن تتوسع المدينة نحو المرتفعات بحيث تجاوزت في حدودها المدينة القديمة [٤٤]، و يصف حسن الوزان المدينة التي مر بها في بداية القرن السادس عشر كما يلي:" **و هي كبيرة جدا و تضم حوالي أربعة آلاف أسرة، و أسوارها رائعة و قوية للغاية، و مشيدة بحجارة كبيرة و تتألف من بيوت جميلة و أسواق جيدة التنسيق ...كما نجد فيها أيضا عددا كبيرا من الفنادق والحمامات...و يظهر حول الجزائر الكثير من البساتين و الأراضي المزروعة بأشجار مثمرة.**"[٤٥]

لقد ارتبط ازدهار المدينة بنشاط القرصنة إذ كانت تدر على البلاد بأرزاق هذا بالإضافة إلى إزدهار الزراعة و التجارة، وقد ازداد عدد السكان خاصة بهجرة الأندلسيين و العثمانيين[٤٦] فكثر عمرانها و تنوع، و يمكن تقسيمه إلى قسمين؛ الأول داخلي أي الذي تحيط به أسوار المدينة، و قسم خارجي أي المناطق المجاورة للمدينة أو الضاحية و التي يعبر عليها محليا بالفحص[٤٧]، و كانت تقام فيه منشآت متنوعة ومنها منازل فخمة يشغلها بعض العبيد، و قد أشاد الكثير من الأوروبيين بها بحيث اعتبرت من أفخم و أجمل المنازل التي يمكن رؤيتها في هذه الضاحية، و ما يثير الإعجاب هو وجود هذه

---

[٤٢] أقيمت في مكان الحصن الدار قبطان رايس، و هي مقر أمير البحرية المعروفة اليوم، أنشأت على عهد حسين بن علي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م آخر دايات الجزائر. عن: عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر... الجزء الثالث، ص٥١.

[43]Venture de Paradis, Alger au XVIIIème Siècle, édité par E. Fagnan, Alger 1898, p3,4.

[٤٤] Devoulx,op.cit, p512,513 و عبد القادر حليمي،مدينةالجزائر...، ص٢١٩.

[٤٥] حسن الوزان، المصدر السابق، ص٤٠٨.

[٤٦]عبد القادر حليمي ، مدينة الجزائر...، ص٢٥١_٢٥٣.

[٤٧] الفحص لغويا معناه ما استوى من الأرض، لسان العرب.

المنارة للاستشارات
www.

المساكن بين الحدائق و البساتين الغنية بالفواكه و الخضر و المياه الجارية، فما هي الأسباب التي أدت إلى إقامة هذا النوع من المساكن مع العلم أنها خالية من سكانها تقريبا طول السنة؟ و من هم أصحاب هذه الملكيات؟

العوامل التي ساعدت على إقامة منازل الفحص:

لقد ارتبط ازدهار مدينة الجزائر في العهد العثماني بفضل الانتعاش الإقتصادي الذي عم البلاد نتيجة الاستقرار الأوضاع السياسية و العسكرية التي فرضها الحكم الجديد.

و قد كان لميناء الجزائر الذي أقامه خير الدين[٤٨] نتيجة لتوفر الشروط الطبيعية ملائمة، دور كبير في إعادة نشاط الحركة التجارية البحرية بشكل كبير، مما أدى إلى ازدهار البلاد.

هذا و لا شك أن حركة الجهاد البحري الذي فرضته بعض الدول الأوروبية و في مقدمتها أسبانيا، كان له دور جزئي في حصول الجزائر على مبالغ هامة في بعض الفترات، يشتد فيها الصراع البحري لأسباب سياسية و إقتصادية وعسكرية، كل ذلك ساهم في رخاء الجزائر في الفترة العثمانية وباستمرار الصراع لسنوات طويلة، تضخمت فيها أموال البلاد و تجمعت الثروات بين أيدي خاصتها من الحكام و رعيتها من مختلف الطبقات؛ خاصة لدى رياس البحر، و التجار، و بعض الحرفيين لذلك عمدوا إلى إقامة المشاريع العمرانية و منها المساكن خارج أسوار المدينة لقضاء فيها أوقات الراحة[٤٩] فقد ضاقت المدينة و اكتظت بالسكان و الأسرى والعبيد، أضف إلى ذلك هجرة الأندلسيين الذي يعود إليهم الفضل في استصلاح الأراضي للزراعة وجلب المياه[٥٠] و قد أطلق عامة الناس على المناطق الواسعة أو الأماكن التي تقع خارج أسوار المدينة اسم الفحص[٥١] و هي مناطق تصل الريف والمدينة، إذن ما هي حدود أراضي الفحص؟

حسب الدراسات، حدد موقع الفحص في المنطقة الشرقية لإقليم الساحل التي تعتبر حاجزا طبيعيا بين ساحل البحر و سهل المتيجة، و قد قدرت مساحته

---

[٤٨] يسع هذا الميناء ٣٠ مركبا.

[٤٩] وليام شالير، المرجع السابق، ص٧٨.

[٥٠] ناصر الدين سعيدوني،"فحص مدينة الجزائر (نوعية الحياة الاقتصادية و الاجتماعية عشية الاحتلال)"، عن: مجلة الدراسات التاريخية، العدد الأول، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٩٢.

[٥١] صفة تطلق على الضاحية، تشبه الريف، أي الأراضي أو المناطق التي تقع خارج المدينة، وهي عبارة عن أحياء ريفية. عن:

Beaussier (M), Dictionnaire pratique Arabe-Français contenant tous les mots employés dans l'arabe parlé d'Algérie et en Tunisie, ainsi que dans le style épistolaire les pièces usuelles et les actes judiciaires, Alger ancienne maison Bastide Imprimeur de l'université 1931 p370.

المنارة للاستشارات
www.

الإجمالية في أواخر العهد العثماني بثلث مساحة الإقليم الساحلي كله، أي ما لا يقل عن ١٥٠ كلم مربع، و بهذه المساحة فهو يمتد إلى ما يزيد عن ١٢كلم من أسوار مدينة الجزائر، يتسع الفحص منحنى خليج الجزائر، و يظهر كالهلال يحضن الجزائر، و يمتد من الشمال إلى الجنوب على الوجه التالي: من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود سهول المتيجة، و من الشرق إلى الغرب من مصب نهر الحراش إلى حدود هضبة بوزريعة التي ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ٤٠٧م.

و يقدر عدد الفحوص بثلاثة فحوص كبيرة، و هذا حسب الطرق الرئيسية المؤدية إليها والأبواب التي تفتح عليها، معتمدين في ذلك على ورد في وثائق الوقف؛ فالمنطقة الشمالية يطلق عليها فحص باب الوادي،أما المنطقة الجنوبية أو الوسطى تعرف بفحص الباب الجديد، ، أما المنطقة الأخيرة، و هي الجهة الشرقية و التي يطلق عليها فحص باب عزون.[٥٢]

و الجدير بالذكر أن حدود فحص مدينة الجزائر لم تكن مستقرة، بل كانت تتسع و تتقلص وهذا حسب الظروف التي كانت تمر بها البلاد؛ ففي فترات الازدهار و الرخاء واستتاب الأمن تتسع حدوده و إذا ما ساءت الأحوال نتيجة للأوبئة و المجاعات و الكوارث الطبيعية، مثل القحط و الجراد و الزلازل، فلا تتعدى حدود الفحص ناحية دالي براهيم من الجهة الجنوبية الغربية وبئر خادم من الجهة الجنوبية الشرقية و القبة و حسين داي من ناحية الشرق[٥٣].

إن اختيار مناطق الفحص لم يتم بمحظ الصدفة، و إنما تم لتوفر مجموعة من الشروط الملائمة للإقامة و السكن و الفلاحة و الغراسة، فالهواء صحي ونقي و التربة الخصبة، و تحتوي المنطقة على مصادر المياه و المتمثلة في عيون وآبار و أودية و من أمثلة العيون: عين الزبوجة و الأزرق، أما فيما يخص الآبار، فنجد: الأبيار ، بئرخادم و أخيرا الأودية بما فيه المجاري و الجداول، مثل: واد المغاسل، و وادي كنيس، و وادي الأحراش[٥٤].

و ما يدل على ازدهار الفحص في العهد العثماني هو إشارة الأجانب إلى هذه المناطق، فقد كانت تشد الانتباه و من بين هؤولاء الأجانب **هايدو**[٥٥] فيذكر أنه بمجرد ما نخرج إلى الريف نشاهد مناظر رائعة و متمثل في أشجار الكروم، والحدائق التي تحيط بالمدينة؛ ففي كل مكان لا نرى إلا أشجار

---

[٥٢] ناصر الدين سعيدوني، "فحص مدينة الجزائر..."،ص٩١،٩٢.

[٥٣] نفسه، ص٩١.

[٥٤] ناصر الدين سعيدوني، "فحص مدينة الجزائر..." ص٩٢.

[٥٥] كان أسير في مدينة الجزائر ما بين سنتي ١٥٧٨_١٥٨١م.

* أترج أو كُباد، نوع من الشجر كبير الثمر، لا يؤكل بل يصنع منه رُبّ.

المنارة للاستشارات
www.

البرتقال، والليمون، و الأترج*، هذا بالإضافة إلى الأزهار و الورود المتفتحة طول السنة، تسقى هذه الحدائق بعيون ذات مياه صافية مثل البلور، كما يعبر الكاتب عن دهشته حين يذكر أنه بالرغم من وقوع هذه المناطق مباشرة بعد الأبواب وأرضيتها جبلية، فهي شديدة الخصوبة، إذ تظل النباتات طول السنة خضراء وهذا بالرغم من شدة الحرارة في فصل الصيف، و هذا بفضل العناصر المائية التي تنبع من قمم الجبال.[٥٦]

من هم أصحاب منازل الفحص؟

يذكر(هايدو) أنه بعد الظهر، يخرج العديد من السكان _رجالا و نساءا_ إلى الضواحي يقضون أوقات للتمتع و النزهة، و وسط هذه الخضرة أقيمت مساكن صغيرة شديدة البياض، تعطي للريف مظهر ساحل جنوة[٥٧]، و من بين هذه الحدائق ، لا توجد أي واحدة خالية من أسير أو أسيرين يعملون بها، إذ يقومون طول السنة بأعمال الحرث و الزرع و السقي بحيث يولوها رعاية دقيقة[٥٨]،أما عن أصحاب هذه الأملاك، فهم من الموظفين الساميين في الدولة مثل المفتي، و شيخ الإسلام و وزير المالية، و رياس البحر، و من الأغنياء مثل التجار، و من بينهم يهود والقناصل الذين كانوا يقيمون فيها طوالة السنة، أي محل إقامتهم، أما محل عملهم فقد كان يقع داخل المدينة، و يمكن تمييز منزل القنصل عن المنازل الأخرى بوجود علم وطني[٥٩]، أما الآخرين فلا يشغلوا هذه المنازل إلا في أيام الفصول الجميلة، إذ البعض منهم يقضي فيها فصل الصيف فقط، و البعض الآخر يقيمون فيها قبل هذا الفصل، في حين يتردد المالك على المنزل بانتظام أو يبعث أحد أقاربه إذا كان مشغولا، و ذلك من أجل التزود بالخضراوات و الفواكه و الطيور.[٦٠]

أصل التسمية

أول ما يشد الانتباه عند مطالعة المصادر الأجنبية هو تعدد الأسماء التي أطلقت على هذه المنازل؛ فهايدو يطلق عليها اسم حدائق(jardins)، أما الأب **دان** (Dan) فيذكر أنه يعبر على هذه الحدائق بلغة الإفرنج باسم "مصرية" (Maceries)[٦١].

---

[56]Don Diego De Haëdo, « Topographie et histoire d'Alger », traduit de l'espagnol par MM. Le Dr Monnereau et A. Berbugger, dans : Revue Africaine, Année 1871, Vol. 15, p462.

[٥٧] تقع مدينة جنوة على ساحل البحر في إيطاليا.

[58] Haëdo, « Topogr.et hist…. »,p463

[٥٩] يرفع العلم كدليل على أنه غير مسلم و له الحق في إقامة جرس، و تربية الخنازير.

[60]Haëdo, « Topog.et hist… », p463.et Philibert (M), Le Fah'ç Algérois d'antan Alger Décembre 1970 p8,9,10.

[61]P.DAN, Histoire de la Barberie et ses corsaires, second édition Paris chez pierre Rocelet MDCXLIX 1649 , p87,88. =

المنارة للاستشارات
www.

كما أطلق عليها اسم "جنان" لأنها تقع وسط حديقة هذا ما نجده في معظم المراجع، لكن ما يلاحظ أن إطلاق اسم جنان أو جنة على هذا النوع من المنازل لا نصادفه في المصادر التي أشارت إليها، و يظهر ذلك واضحا عند **الأب دان** – زار الجزائر سنة ١٦٣٤_ أبدى إعجابه بها و قد شبهها بالمزارع، و كما سبق و أن ذكرنا فقد أطلق عليها اسم "مصرية"[٦٢] و نفس المصطلح نجده عند (Chevalier d'Arvieux) (القرن١٧م) و (Laugier de Tassy) (القرن١٨م)[٦٣] و الجدير بالذكر أنه من بين اللغات السائدة في البلاد لغة الإفرنج و التي تعتبر هجين لغات أوروبية منها الأسبانية، و لذلك نعتقد أن هذه اللفظة و فدت مع المهاجرين الأندلسيين إذ كانت شائعة في بلادهم، كما دلت الدراسات أنه في الأحياء التجارية بالأندلس، كانت تقام منازل صغيرة تتكون من طابق واحد و أحيانا من غرفة واحدة تعلو الحوانيت (محلات)، يصعد إلى هذه الغرفة بواسطة فتحة تجهز في جدار الحانوت، يبرز منها درج يصل بين الحانوت و الغرفة، و كانت هذه الغرفة تسمى "بالمصارى" جمع مصرية، و ما تزال اللغة الإسبانية تحتفظ بهذا الاسم العربي[٦٤].

و يحتمل أن هذه التسمية أطلقت لعدة أسباب، فهي تتفق مع ما جاء به **(فونتير دوبرادي)** حين يذكر أن" مصارية" عبارة عن منزل صغير يخصص لصاحب الملكية و بجانبه بيوت صغيرة، و يقصد بها الأكواخ التي يقيم فيها المزارعون الذين يقومون بخدمة الأرض[٦٥]، و هذا يطابق المفهوم الأندلسي في وجود المنزل الصغير أو الغرفة التي تعد لصاحب الملكية من أجل مراقبة المزارعين، و السبب في بساطة البيت يدل على أن السيد لا يقيم فترة طويلة في مزرعته، و هذا ما يؤكده لنا السيد حمدان خوجة الذي كان يملك أراضي في سهل المتيجة، فيذكر أنه كان يزورها مرة في الربيع

=يذكر الأب دان أنه كانت توجد ثلاثة أنواع من اللغات؛ الأولى العربية و هي لغة الأهالي و الموريين أي الأندلسيين، ثم اللغة العثمانية، أما الثالثة فهي لغة الإفرنج و تطلق على اللغة عامية؛ سهلة الاستعمال و هي مزيج من اللغات الأجنبية، منها: اللغة الفرنسية، و الإيطالية، و الأسبانية.ص٩٢,٩٣.

[٦٢] Maceriesأو Masarie أصل الكلمة لاتيني معناها مزرعة.

[٦٣] يمكن أن نضيف كل من

J.A.Peyssonell , Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Edition le découverte Paris 1987 و Venture de paradis

من القرن ١٨.

[٦٤] حسن سامي، "العمارة المدنية بالأندلس (الدار الأندلسية)"، عن: مجلة الدراسات التاريخية، العدد الأول، السنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٨٩.

[65] Venture de Paradis, op.cit, p6.

المنارة للاستشارات
www.

لأنه يخشى الحمى في الفصول الأخرى[٦٦]، و يتبن لنا أن سهل المتيجة لم يكن صالحا للسكن بسبب الأمراض التي تنجم عن عن مياه مياه المستنقعات، أما **ليسباس** الذي استعان بالسيد ابن شنب للتعريف بهذا مصطلح، فيذكر بأنه يقصد به منزل صغير منفصل عن باقي المنزل أين يقيم العبيد، ثم هذا المصطلح أهمل، و نعتقد أن سبب الإهمال هو اقتصار هذه التسمية على فئة معينة من السكان، بينما يتساءل **ليسباس** ما إذا أخذ هذا المصطلح فيما بعد مفهوم المنزل الصغير الريفي، بينما كان يدل على بيت للعبيد[٦٧]؟ و يظهر أن هذا الاحتمال الثاني أدى بالمؤلفين إلى إطلاق اسم مصاري، لأن معظم منازل الفحص كان يشتغل فيها العبيد، و هنا وقع المزج بين منازل الفحص والمزارع، وأعتقد أن الوصف الذي وضعه **فونتير دو برادي** هو أقرب للواقع، هذا ما جاء في المصادر الأجنبية، بينما إذا رجعنا إلى وثائق الوقف التي تعود إلى الفترة العثمانية فقد جاء فيها المصطلحات التالية: جنة، أو جنان، أو حديقة و بستان، و هذه الأسماء دليل على أنها كانت المتداولة بين الأهالي والشيء الوحيد الذي يمكن ملاحظته، هو أن الكاتب يكتفي بمصطلح جنة أو جنان في الوثيقة، بينما غالبا ما نجد اللفظين مع بعض؛ حديقة و بستان، أي أن نوعين مختلفين من المزروعات، ونعتقد أن السبب في ذلك راجع إلى أن هذه المساكن كانت تحتوي على حديقة وبستان و لكل واحدة منهما خصائصها، و هذا ما نستدل به من خلال الوصف الذي وضع من طرف المؤلفين، بالإضافة إلى المعاجم اللغوية التي تؤكد على وجود الاختلاف بين الحديقة و البستان ففي الأصل يطلق لفظ حديقة على الأرض المرتفعة و المزروعة بالشجر و الثمر و النخل، أما البستان[٦٨]فبالإضافة إلى وجود أشجار، نجد مزروعات بقلية و كليهما أي الحديقة و البستان يحاطان بجدار أو سور[٦٩]، كما يظهر من خلال المصادر أن لفظ بستان في الجزائر ارتبط بوجود شجر السرو[٧٠]، و قد جاء في أحد المؤلفات عند وصف إحدى المنازل أن شجرة السرو تعتبر من الضروريات التي يزين بها المسكن، فتظهر أوراقها غامقة اللون على خلفية بيضاء و المتمثلة جدران البيت، كما أن ارتفاعها يحدث توازن في المنظر، لأن معظم هذه المنازل لها مظهر التكعيب، و تجهز كل من الحديقة و البستان بممرات

[٦٦] خوجة بن عثمان حمدان، المرجع السابق، ص ٨٧.

[67] Lespes, op.cit, p187.

[٦٨] أصل الكلمة فارسي؛ بو: معناه عطر، بستان: مكان، مكان العطر.

[٦٩] عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، عربي_ فرنسي_ إنكليزي، مادة: "حديقة"، ص١٢٧، مادة:"بستان"، ص٨٨٥، جروس برس، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

[٧٠] Beaussie, op.cit., p53.

المنارة للاستشارات
www.

غالبا ما تكون مظللة بكروم معترشة و يحاط الكل بسور من الأغاف أو الصبار[٧١]،من هنا يتضح أن هذه المنازل كانت تحتوي على حديقة و بستان لكل واحد منهما منتجاته الخاصة و في مجموعها يعبر عليها باسم الجنان أو الجنة، أي أن كل منزل يوجد وسط حديقة مثمرة و يقع في ضواحي المدينة يطلق عليه اسم جنان أو الجنة[٧٢]، و يذكر حمدان خوجة الذي عاصر الحملة الفرنسية أن أحد الجنرالات استولى على جنانه وداره المعدة للاستجمام[٧٣] و هذا أحسن دليل على أن هذا المصطلح كان شائعا لدى أهل البلاد، والسؤال الذي يعترضنا، متى استخدم، فهل وفد مع الأتراك أم أنه محلي؟ الظاهر أن أقدم وثيقة وقف تشير إلى ذلك تعود إلى سنة١٥٨٦م[٧٤]و كذلك مصطلحي بستان و حديقة، إذ أقدم وثيقة تعود لسنة ٩٦٨_١٢٢٤ هـ[٧٥] و لا نستبعد أن هذه المصطلحات استعملت قبل وفود العثمانيين، فربما كانت تطلق هذه الأسماء للتفرقة بينها و بين لفظ بحيرة التي أطلقت في بعض مناطق المغرب على حديقة خصصت لزراعة أنواع معينة من الخضر: البطيخ، و عادة ما دلت في العهد الموحدي على الحديقة المروية.[٧٦]

عـــــــــددها

لقد اختلفت الآراء في تحديد عدد المنازل في الفترة العثمانية، إذ كان يزيد و يتقلص، و حسب المصادر أقصى حد لها وضع من طرف (Laugier de Tassy) القرن ١٨م، إذ يذكر أنه بلغ عددها ٢٠ ألف منزلا، و الملاحظ أن هذا الاختلاف لا يعود إلى تباعد السنوات و لكن نجده في نفس القرن.

في نهاية القرن الثاني عشر هجري (١٨م)، أشار فونتير دو برادي الذي أقام في مدينة الجزائر سنة ١٧٨٩م إلى أن عدد المنازل التي تقع في ضواحي

---

[71]Comelin, Godefroy, Philemon de la Motte, Etat des Royaumes de Bararies, Tripoli, Tunis et Alger, Rouan, chez Machvel (P), 1731, p235, 23

وانظر كل من:

Peyssonel,op.cit.,P256. .

Philibert,op.cit.,P8 Anonymes,op.cit.,P3 .

G.Esquer, Alger et sa région B. Arthaud Paris MCMXLIX Année 1949 p253.

[72] Baussier, op.cit, p158.

[٧٣]خوجة بن عثمان حمدان، المرجع السابق، ص٢٣٧.

[٧٤] عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، منشورات المجلة التاريخية المغربية، العدد ٥، تونس ١٩٨٠، ص٤٠.

[٧٥] ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية و الوقف و الجباية الفترة الحديثة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ٢٠٠١،ص ٢٦٠.

[76]Encyclopédie de l'Islam, tome. I, article: « Buhayra » , p1327 et Baussier, op.cit ., p32.

المنارة للاستشارات
www.

المدينة يصل ١٦٠٠٠ بستان[٧٧]، بينما في بداية القرن التاسع عشر ميلادي و قبل الحملة الفرنسية، قدر عدد المنازل الريفية القنصل الأمريكي **شالير** (Shaler) الذي أقام في الجزائر ما بين سنتي ١٨١٦_ ١٨٢٤م بعدد يزيد على الألف، و هي عبارة عن صورة صادقة للفن المعماري المغربي[٧٨].

و السؤال المطروح على أي أساس اعتمدوا في تحديد عدد منازل الفحص؟ فهل كانت تقديراتهم مجرد احتمالات فقط من خلال التجوال في ضواحي المدينة؟ أو جاءت بعد عملية إحصاء، مع العلم أن البعض الكتاب من كان يستعين بالنصوص السابقة له؟ الظاهر أن هذه التقديرات استنتجت من إحصاء عدد سكان المدينة الذي كان يزيد و ينقص حسب الظروف التاريخية و العوامل الطبيعية، و هناك من جاءت تقديراته عند اهتمامه بعدد الأسرى، إذ كانوا يشتغلون فيها_ و قد سبق الإشارة إلى ذلك_

لا نتعجب إذا كان عدد السكان و المنازل مرتفع، فهذا راجع إلى شهرة الإيالة التي نالتها عندما انتصرت على شارل الخامس، إذ عرفت المنطقة تدفق العديد من المسلمين الوافدين من بلاد الأسبان، و هذا خلال فترات مختلفة ١٥٦٢ و١٦٠٧م[٧٩]، فمهما اختلفت الآراء في تقدير عددها فالظاهر أن الإيالة كانت محطة أنظار و مراقبة من طرف الدول الأوروبية، كما أنه يوضح الشهرة التي تمتعت بها الإيالة حتى نالت اهتمام العديد من الأجانب.

بعدما رأينا الظروف و العوامل التي ظهرت فيها مساكن الفحص إذن ما هو التصميم العام لها؟ هل ظهرت بصورة الوافدين سواء كانوا أتراك أم أندلسيين؟ أم حافظ المعماري على نمط البيت المغربي؟

تصميم دار الفحص

حسب الدراسات الحديثة التي قام بها الأستاذ الدكتور لعرج للبيت المغربي قبل دخول العثمانيين المنطقة[٨٠]، تبين أن تصميم البيت المغربي يقوم على الفناء الأوسط الواسع المستطيل أو المربع الشكل على جانبيه حجرات تتقدمها بائكة من العقود تطل على الفناء...أي أن نفس التقاليد تستمر في الفترة العثمانية، إذ لا تخرج عن هذا التصميم في صورتها العامة فهي تتميز بنفس الخصائص و تتشابه في عدة عناصر رئيسية، هذا مع إدخال بعض

---

[77] Venture de paradis, op.cit, p2.

[٧٨] وليام شالير، المرجع السابق، ص١٠٤.كما يذكر أن معظم هذه المنازل كانت مهجورة، ص١٠٥.

[79]Cresti (F), Alger au XVII ème Siècle, Edition du Centro Analisi Sociale Progetti S.R.L. Rome, 1996, p25.

[٨٠] عبد العزيز لعرج،"صورة المسكن المغربي الإسلامي في العصرين المريني-الزياني"، عن الملتقى الرابع للآثاريين العرب، الندوة العلمية الثالثة ١١-١٣ شعبان ١٤٢٢هـ/٢٧-٢٩ أكتوبر ٢٠٠١، القاهرة،٨٣٩.

المنارة للاستشارات
www.

العناصر التي تواكب التطور الذي صاحب تغيير في أسلوب الحياة، يتماشى مع الظروف التي كانت تتحكم في البلاد خلال الفترة العثمانية، و على هذا الأساس يظهر أن تشخيص خصائص المسكن في العهد العثماني أصبح واضحا و يمكن تحديد ذلك في عدة عناصر وهي كالآتي:

المدخل: يظهر على نوعيين، النوع الأول تظهر بسيطة على شكل فتحة معقودة بعقد نصف دائري تؤدي مباشرة إلى السقيفة، أما النوع الثاني فيظهر المدخل بارز عن الواجهة، و هذه الظاهرة المعمارية تعرف باسم مقدم المبنى أو ما يطلق عليها باسم المداخل التذكارية.

السقيفة: تقع مباشرة بعد المدخل تفتح في جدارنها على الجانبين فتحات معقودة بعقد مستعرض، و تعرف هذه الدخلات محليا باسم الدكانات، و هي عبارة عن مجالس أو مقاعد تهيئ لاستقبال الضيوف، و تعتبر بمثابة قاعة استقبال، و يمكن للمنزل أن يحتوي على أكثر من سقيفة، و يختلف موقعها من بيت لآخر إذ لا يلتزم المعماري بجهة معينة، و لكن ما هو ثابت أنها تقع مباشر بعد مدخل المسكن، و يظهر أن تعدد السقائف في الغالب، يرجع إلى كبر مساحة المنزل مما يسهل تنقل عبر أجزاء المسكن، كما يمكن أن تقام السقيفة الثانية للفصل بين المبنى المرافق الخاصة بالخدم و الحاكم.

الفناء المركزي: أو الفناء المكشوف في عمارة المساكن من العناصر الأساسية و الجوهرية التي يقوم عليه المبنى، فيعتبر النواة التي تشرف عليه كل العناصر، و قد أوضح ذلك السيد بازانا(Bazzana) عند حديثه عن مساكن شرق الأندلس أنه إلى اليوم:" قبل أن يعين المهندس على الأرض أسس مخطط الدار بالاتفاق مع صاحبها، فإنه لا بد من تحديد على الأرض فراغين على شكل مربعين مندمجين؛ يمثل الأول وسط الدار أو الفناء المركزي الذي بدونه لا يمكن أن يكون للدار وجود فعلي، و يمثل الفراغ الثاني السور الخارجي الذي يعد الحد الفاصل بين المجال الخارجي و الداخلي".

هكذا تظهر أهمية **الفناء** في عمارة المسكن و على حد تعبير السيد بازانا بدونه لا يقوم المسكن. لقد اختلفت المسميات عبر العالم الإسلامي فيذكر الدكتور الريحاوي أنه في مصر يعرف باسم الحوش، و في سوريا اسم الباحة السماوية، وباللغة التركية يطلق عليه اسم باتي (pati) ، بينما نجده في الجزائر يطلق عليه اسم **وسط الدار** و هو المصطلح الشائع في بلاد المغرب.

الغرف: ذات التصميم المستطيل المجزء إلى ثلاثة أقسام، و هي من التقاليد التي حافظ عليها أصحاب المساكن، و هذا نظرا لما تتوافق مع نمط حياتهم، و قد جاءت هذه التقسيمات في بعض الغرف ظاهرة و ذلك برفع من مستوى

المنارة للاستشارات
www.

أرضية الجزء الجانبي عن أرضية الغرفة، و يطلق عليها محليا السدة، فمن المعروف أنه لا توجد غرف متخصصة للنوم أو الأكل، بل يمكن استخدام أي غرفة لجميع الأغراض، و هذا يتناسب مع تصميمها، بحيث يستغل الجزء الجانبي للنوم و آخر لوضع أثاث البيت من فراش و أغطية، كما يستغل الإيوان للجلسات و الراحة، وربما يستغل الإيوان أيضا في استقبال الأقارب فقط. و تصميم الغرف على هذا النمط و المطلة على الفناء ما هو إلا حصيلة تطورا للمسكن المشرقي الذي خضع لتغييرات عبر الزمن و كان للدين الإسلامي الأثر الكبير في ظهوره بهذا النمط و لم يظهر هذا الطراز مع العثمانيين.

الفناء الخارجي: يشكل هذا الفناء مع المسكن و الفناء المركزي كتلة معمارية موحدة يضمها سور يدور حولها، و في بعض المنازل تتعدد الأفنية فيمكن أن تصل إلى ثلاثة والجدير بالذكر أنه كل المساكن الفحص أقيم بها الفناء الخارجي و هي على ما يبدو تتقدم المسكن، و لقد إعتنى بها المعماري بحيث نالت حظا وافرا من الزخرفة، وأعتقد أن السبب في ذلك أنها أول ما يواجه الزائر، فتنشرح نفسه لما تواجهها من مظاهر الزينة و الزخرفة، و المتمثلة في إطارت العقود المزينة بالمربعات الخزفية و الأحواض المائية و النافورات الرخامية النافثة للمياه، و معظم هذه الأفنية تتخذ الشكل المستطيل، تمتد إما طوليا أو تقام مستعرضة، تمتاز بمقاساتها الكبيرة تحاط بالأروقة على الأقل في ضلع واحد، و على العموم تبدو على هذا الفناء مظاهر الترف و الفخامة، و هناك من الأفنية التي خصصت لإقامة المرافق المعيشية و الملحقات و قد تمثل في المطابخ و البيوت الغسيل، و كان الغرض من تصميم الفناء على هذا النظام راجع للفصل بين المسكن و الجزء الخاص بالخدم، و مع ذلك لم يخلو هذا الفناء بتزويدها بالأحواض المائية، و تبدو هذه الأفنية في شكلها العام كأنها امتداد للحديقة فهي غالبا تقع بالقرب منها و هذا لعدة أسباب منها؛ نقل بسهولة الثمار و المحاصيل التي تزرع في الحديقة إلى المخازن التي تقام في الفناء أو تركها تجف تحت أشعة الشمس إن تطلب الأمر إلى ذلك.

يتبن مما سبق أن **تصميم مساكن الفحص مدينة الجزائر يقوم على فنائيين؛** الأول يعتبر كهيكل قاعدي، تقوم عليه باق العناصر الأروقة و الغرف، أما الفناء الثاني أي الخارجي.

و على هذا الأساس يمكن تحديد نوعين من المساكن لكل واحد منهما خصائصه:

خصائص الصنف الأول وقوع الفناء مباشرة على الأرضية و يكون في نفس المستوى مع الفناء، نلج إلى الصحن عبر سقيفة مباشرة و تحيط به

المنارة للاستشارات
www.

الطوابق، بينما المرافق المعيشية فيخصص لها مكان في الفناء فيظهر أن المنزل مقسم إلى قسمين؛ قسم خاص بالإقامة و قسم خاص بالمرافق المعيشية. **خصائص الصنف الثاني** للمنازل التي يقع صحنها في مستوى مرتفع أي يقوم على حجرات مسقفة بأقبية، و يكون الصحن في مستوى مرتفع عن الفناء، نلج إلى الصحن عبر سلم يقع في السقيفة التي تفتح على أحد أضلاع الرواق للفناء.

أما المبنى الرئيسي أو المسكن، فيتركب من طابق أرضي، يضم المرافق المعيشية، يعلوه طابق آخر يضم الغرف، بينما نجد في الفناء أروقة أو حجرات.

- ✓ و من الخصائص التي تميزت بها منازل الفحص أن الغرف تتوزع عبر الأضلاع الثلاثة للطابق، تتخذ الشكل المستطيل و تفتح في جدرانها حنيات تستخدم كخزائن لوضع لوازم السكان، كما نجد محاور أبواب الغرف و النوافذ لا يقطعها عمود، فدائما تحدد مواقع المحاور بين عمودين، و بالتالي يوجد فراغ بين فتحات الأبواب و النوافذ يمكن للجالس رؤية ما يجري خارج الغرفة دون عائق.
- ✓ يتوسط الغرف إيوان بارز فيظهر كأنه غرفة أخرى، كما أعطى المعماري أهمية لهذا العنصر و ذلك بتسقيفه بقبة مضلعة.
- ✓ تميزت أطراف بعض الغرف بإقامة قبة، فتظهر على شكل مقصورة أو خلوة.
- ✓ من مظاهر التأثير العثماني على منازل الفحص تزيين جدران الغرف و الأروقة في مستوى السفلي بمربعات الخزفية، بينما من قبل فكانت تزين بالفسيفساء الخزفية، تنظم في شكل كسوات جدارية على ارتفاع أقل من متر بينما تترك المسطحات العليا للزخرفة الجصية.

تظهر منازل الفحص في شكلها العام بسيطة و تكمن براعة المعماري في تصميمه للبيت، فقد وفق إلى حد كبير في طريقة توزيعه للعناصر المعمارية بأسلوب يوفر معيشة سهلة ومريحة، و ذلك بتجهيز المسكن بكل ما يحتاج إليه السكان من مرافق و إقامة والاستمتاع بالراحة.

المنارة للاستشارات
www.

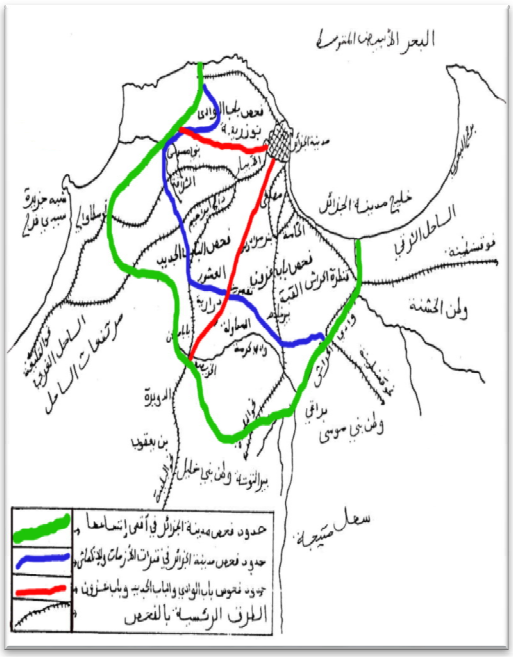

خريطة توضح حدود فحص مدينة الجزائر و الطرق الرئيسية

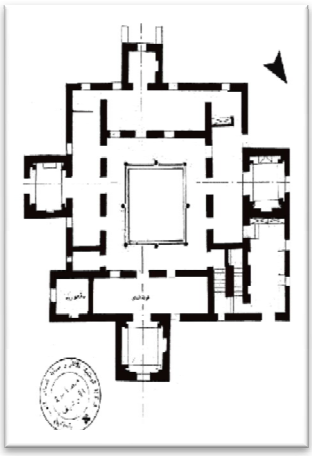

مسقط الغرف و الجزء البارز(الإيوان)

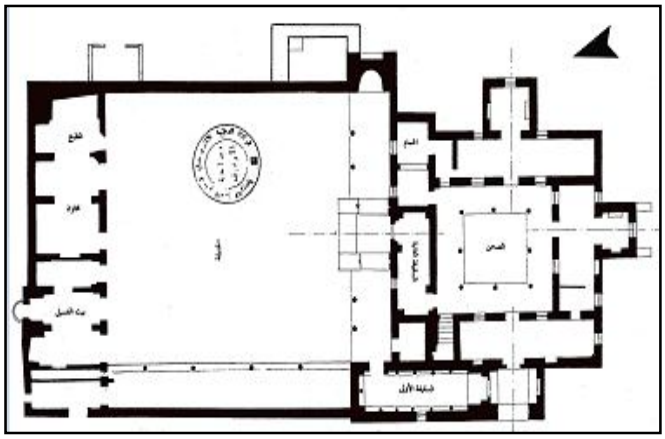

مخطط عام لدار الفحص و الفنائيين

المنارة للاستشارات
www.

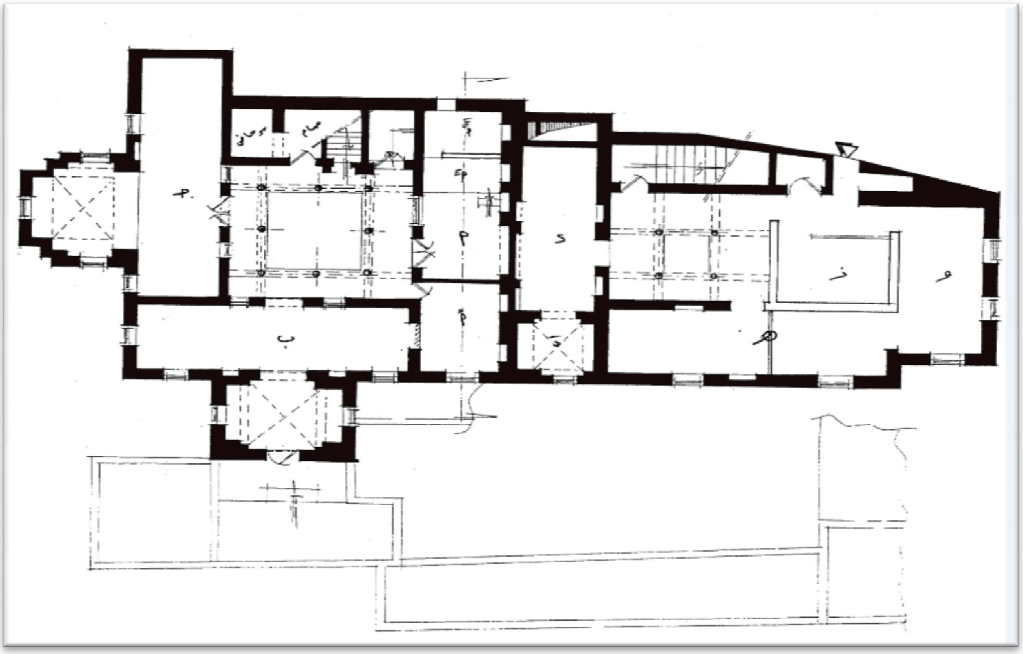

تقسيم الغرفة (أ) إلى ثلاثة أجزاء

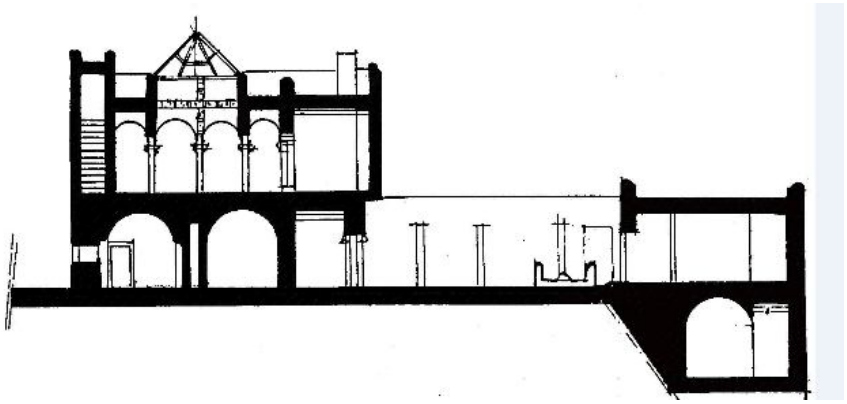

مخطط يوضح الفناء المركزي القائم على الأقبية

المنارة للاستشارات
www.

موقع المسكن وسط الحديقة

مظهر خارجي لتصميم الدار و الفناء الخارجي

منظر عام للدار و الفناء

المنارة للاستشارات
www.

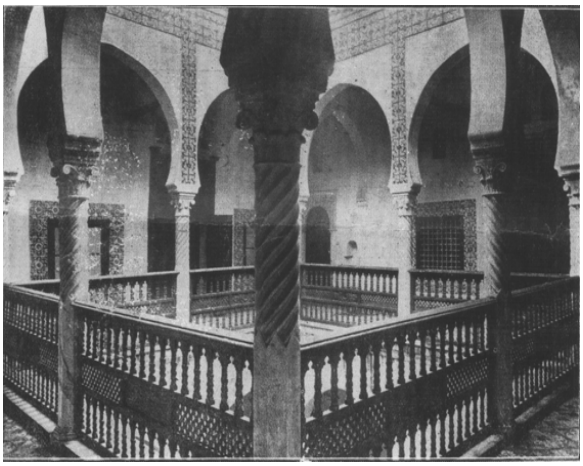

الطابق العلوي و الأروقة و الغرف

منظر عام للفناء الخارجي (الحديقة)

المدخل الرئيسي للدار

المدخل البارز

المنارة للاستشارات
www.

الفناء المركزي

الأقبية التي يقوم عليها الفناء المركزي و يمثل هنا صهريج

المنارة للاستشارات
www.